

مساهمة المدارس الحرة لجمعية العلماء في التعليم والتوعية وموقف إدارة الاحتلال منها (1935-1956)

The Contribution of the Free Schools of the Association of Muslim Scholars to Education and Awareness and the French Colonial Administration's Position Towards Them (1935-1956)

محمد بوسلامة*، جامعة ابن خلدون-تيارت mohamed.bousselama@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2024/12/31 تاريخ القبول: 2025/01/27 تاريخ النشر: 2025/01/31

الملخص باللغة العربية:

نتيجة السياسة التعليمية الفرنسية المعتمدة على محاربة الجزائريين في عقيدتهم وهويتهم الوطنية ومحاولة سلخ المجتمع عن دينه ولغته وتاريخه، ظهرت حركات إصلاحية حملت على عاتقها تعليم أبناء الجزائر وإخراجهم من الجهل والامية وغرس فيهم القيم الإسلامية والوطنية، ومن هذه الحركات جمعية العلماء المسلمين التي أنشأت مدارس التعليم الحرة عبر عدة مناطق من الجزائر، إلا أنها واجهت مضايقات كثيرة وصدرت في حقها قوانين جائرة منها غلق مدارسها وتضييق النشاط التعليمي على معلّميها وتلامذته.

الكلمات المفتاحية: المدارس الحرة؛ الإصلاح التعليمي؛ جمعية العلماء المسلمين؛ القمع الفرنسي.

Abstract:

As a result of the French colonial educational policy, which sought to combat Algerians' faith and national identity while attempting to detach society from its religion, language, and history, reformist movements emerged. These movements took upon themselves the responsibility of educating Algerian youth, lifting them out of ignorance and illiteracy, and instilling Islamic and national values within them. Among these movements was the Association of Muslim Scholars, which established free educational schools across various regions of Algeria. However, these schools faced significant harassment, including unjust laws targeting them,

◆ المؤلف المرسل

such as the closure of schools and the restriction of educational activities for their teachers and students.

Keywords: Free schools; educational reform; Association of Muslim Scholars; French repression.

مقدمة:

عرفت الجزائر مع بداية القرن العشرين 20م بوادر نهضة مست جميع الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، وكان للتعليم العربي الحر نصيب من هذه النهضة ، بعد أن كان هذا التعليم يعتمد على الأساليب القديمة التي بقيت على حالها من فترة طويلة ، وقد شهد هذا التعليم تجارب عديدة من قبل أفراد وجمعيات للنهوض به ، وكانت لجمعية العلماء المسلمين الريادة في هذا الجال ، فمنذ التأسيس سنة 1931م وهي تعمل على إنشاء وتأسيس مدارس في مختلف مناطق البلاد ، وقد سعت إلى تحديث التعليم من برامج ومناهج وتطوير للأساليب ، فأنشأت لجنة التعليم العليا التي تشرف على سير التعليم وتنظيمه ، والتي بدورها قامت بتحديث المناهج والمقررات ، وإنشاء شهادة التعليم الابتدائي العربي ، كما لم تهمل أيضا إتباع أساليب التربية التي تحقق التوازن بين مبادئ التربية الإسلامية وتواكب في الوقت ذاته روح العصر ، كما سعت إلى تحديث أساليب التعليم ، فما هي أهداف السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر؟ وكيف ظهرت هذه المدارس؟ وكيف تصدت الجمعية للمضايقات التي فرضتها عليها الإدارة الاستعمارية؟

1- أهداف السياسة التعليمية الفرنسية:

عملت الإدارة الفرنسية منذ احتلالها للجزائر إلى تحقيق مجموعة من الأهداف ترتبط أساسا بالجانب الثقافي والتعليمي والديني ونلخص هذه الأهداف فيما يلي:

1.1- محاربة الدين الإسلامي ونشر المسيحية:

يعدّ التعليم من بين أهم الوسائل والأساليب التي استخدمها المبشرون للوصول إلى أهدافهم النصرانية ، ولذلك جعلوا من الأطفال الجسر الذي يوصلهم إلى هذا الهدف ، حيث أنشأوا المدارس لغرس مبادئهم النصرانية ، وكانت بدايتهم بأبناء الفقراء وهذا

باستخدام أساليب تمثلت في الإغراء كتوزيع الحلوى وإنشاء أماكن للعب في ساحات المدارس بالمجان ، إلى جانب إقامة حفلات للتأثير على نفوسهم¹.

كما كان اهتمامهم بالجانب المهني فأنشأوا مراكز للتكوين في تخصص الزراعة والموجه للذكور وتعليم الإناث فنون التدابير المنزلية وخاص الخياطة والطرز ، أما تعليم الكبار فتمثل في تعليمهم كيفية زراعة الأشجار².

عمل المستشرق الفرنسي فرانسوا بورغاد³ (François Bourgad) ، على تحديد مجموعة من الأهداف تمثلت في الفرنسية والتغريب والتنصير على طريق المدارس ، ومن أجل تحقيق هذه الأهداف أسس مدرسة "سان لويس" (Sain Louis) كما أسس روضة للأطفال يتامى سنة 1846م⁴.

يعدّ الكاردينال شارل لافيغري (Charles Lavegerie)⁵ من أهم دعاة التنصير ، حيث كان له تصوّر تمثل في المطالبة بالتغلغل في وسط الجزائريين وتحضيرهم لتقبل المسيحية ، كما اهتم بتكوين الأساقفة لتطوير العمل التبشيري وإدماج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي المسيحي⁶.

1- محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر من (1930-1904) - دراسة تحليلية ، دار حلب ، الجزائر ، ص ص 80-81.

2- المرجع نفسه ، ص ص 83-84.

3- مستشرق ومبشر فرنسي ، التحق بالمدرسة اللاهوتية وتخرج قساً ، جاء للجزائر في 1830م. للتفصيل انظر ، احميدة عمراوي: سليم وآخرون ، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916) ، دار الهدى ، الجزائر ، 2009 ، ص 109.

4- الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص ص 143-144.

5- شارل لافيغري: كاردينال فرنسي (1825-1892) ، عمل أستاذ تاريخ بجامعة السربون- باريس فيما بين (1854-1856) انتقل إلى شمال إفريقيا في إطار نشاط التبشير والتنصير ولقب بـ "أبو التنصير" في الجزائر وإفريقيا ، أنظر:

George Lucas, Petit LAROUSSE, Librairie LAROUSSE, édition 1986, Paris, p.1550.

6- مزيان سعدي ، النشاط التنصيري للكاردينال لافيغري في الجزائر (1867-1892) ، دار الشروق ، الجزائر ، 2009 ، ص 55.

لتحقيق هذه الأهداف كان على الإدارة الاستعمارية إغلاق المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس والبعض الآخر إلى مستشفيات للجيش ، كما حوّلوا البقية إلى مؤسسات خيرية تابعة لأملاك الدولة الفرنسية واستعمالها في مجالات أخرى مختلفة⁷.

رغم الصعوبات التي واجهت دعاة التنصير إلا أنّهم صمدوا وجعلوا شغلهم الشاغل هو كيفية محاربة الدين الإسلامي وبناء المدارس التعليمية الهادفة إلى غرس مبادئ المسيحية لتسهيل السيطرة على السكان.

2.1- القضاء على الشخصية الجزائرية:

من الأهداف التي عملت فرنسا على تحقيقها في المجال التعليمي هي إتباع الأساليب التي تستطيع بها القضاء على الشخصية الجزائرية وإذابتها في المجتمع الأوروبي⁸ ، وذلك بفرنسة المجتمع الجزائري وقطع الجزائر عن ماضيها ، وشملت هذه السياسة تغيير أسماء المدن والقرى والشوارع بإطلاق أسماء فرنسية لقادة عسكريين عليها ، وسعت هذه السياسة على محو الهوية العربية الإسلامية ومحاربة التعليم الديني وفرنسته⁹.

حاربت فرنسا الجزائريين في لغتهم إذ هدفت سياستها إلى جعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية ولغة التخاطب حتى تقضي على كل حبل يربط الجزائر بماضيها العربي وتاريخها الإسلامي وخلق جيل جديد يتوهم بين حاضره ومستقبله ولهذا أنشئت المدارس العربية الفرنسية¹⁰.

لم يكن الهدف الفرنسي من جعل الفرنسية مكان العربية بريئاً ، بل عملت أكثر من ذلك عندما حاولت فرنسة الروح والفكر والشعور بحيث يصبح إحساس الفرد المتعلم بعروبه إسلامه ووطنه شبه منعدم ، فلا فرق بين سياسة التجهيل وسياسة الفرنسة في مفهوم الاستعمار¹¹.

7- حمدان بن عثمانخوجة ، المرأة ، تحقيق وتعريب: محمد العربي الزبيري ، ط2 ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2014 ، ص ص 279-280.

8- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ، دار الأمة ، الجزائر ، 2010 ، ص 63.

9- عبد القادر حلوش ، المرجع نفسه ، ص 64.

10- عبد القادر بوحسون ، سياسة التعليم الفرنسية بالجزائر ، وموقف الجزائريين منها إبان الثورة التحريرية (1954-1962) ، مجلة متون للعلوم الاجتماعية ، م8 ، ع3 ، سبتمبر 2016 ، ص 235.

11- عبد القادر فضيل ، محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال ، مجلة اللغة العربية ، ع الممّاز ، ص 255.

ركزت كل القرارات والمراسيم التي صدرت في حق سياسة التعليم الفرنسي في الجزائر بشكل كبير على اللغة الفرنسية كلغة رسمية يتم تعليمها للجزائريين من أجل سهولة التعامل والتخاطب بينها وبين السكان.

3.1- دمج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي:

يعدّ الإدماج من الركائز الأساسية التي أولتها الإدارة الاستعمارية في سياستها التعليمية بعد الفرنسية والتنصير، وتسعى من خلال ذلك إلى تحقيق المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في جميع الميادين¹²، إلا أن الهدف البارز من ذلك هو جعل الجزائريين يقبلون الحضارة الأوروبية ويعملون على القضاء على الوجود العربي بعد دمجهم في الكيان الأوروبي وضرب الوطنية والديانة الإسلامية الجزائرية¹³.

لقد أهمل الاحتلال تعليم العربية للجزائريين وقاموا بإلغائها من المناهج والمقررات خاصة في المدارس الابتدائية والثانوية إلا أنهم أبقوا عليها في الدراسات العليا لتحضير الإداريين والمترجمين لإدارة الجزائر وكذا التعجيل بالإدماج¹⁴، وحاولت فرنسا من خلال سياستها التعليمية أن تكون أشخاصا مجنسين ومغتربين ثقافيا وإداريا لا تربطهم أية صلة بوطنهم الأم¹⁵.

كان هدف فرنسا من سياسة الإدماج هو تقوية الروابط بين مستعمراتها وذلك بإذابة المجتمعات المستعمرة في مجتمع الدول الاستعمارية، وذلك بتبني لغة المستعمر وعاداته وطريقة تفكيره، إلا أنّ تحقيق هذا الهدف كانت لديه صعاب كثيرة أهمها تفوق عدد الأهالي على حساب عدد العناصر الأوروبية¹⁶.

12- عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 75.

13- المرجع نفسه، ص 80.

14- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج 2، ط 4 منقحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 62.

15- عبد القادر بوحسون، المرجع السابق، ص 236.

16- عبد الحميد زوزو، تاريخ الاستعمار والتحرر في إفريقيا وآسيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 231.

2- المدارس الحرة:

رغم الأساليب والوسائل المسخرة من قبل سياسة الاحتلال الفرنسي في محاولة طمس اللغة العربية وتنشئة جيل مندمج في الحضارة الفرنسية ، إلا أن ذلك لم يزد الجزائريين إلا إصراراً على التمسك بلغتهم ومقوماتهم العربية الإسلامية وذلك بظهور كوكبة من العلماء والأئمة الذين ضحوا بما يملكون وتصدوا في وجه السياسة الاستعمارية بتأسيس العديد من المدارس الحرة والجمعيات والنوادي التي سيكون لها دور بارز في نشر العلم والفكر العربي الإسلامي ، فما هي هذه المؤسسات وما هو دورها ؟

1.2- تعريفها:

يقصد بالمدارس الحرة تلك المؤسسات التعليمية التي أنشئت مع بداية القرن العشرين ، وظهر نشاطها الحقيقي مع منتصف العشرينيات على يد أفراد الهدف منها نشر التعليم العربي الإسلامي في الجزائر ، وقد كان منهاجها في البداية هو تحفيظ القرآن الكريم وأضيفت لها فيما بعد مواد أخرى وأصبح يطلق عليها اسم المدارس العصرية الحديثة¹⁷.

يخبرنا التاريخ أن الجزائر لم تخلو من المدارس الحرة ، فقد وجدت خلال القرن 19م ، إذ بعد استيلاء الفرنسيين على الأوقاف والمدارس والمساجد والزوايا في المدن ، واصل الناس تعليم القرآن في الكتاتيب إذ كانت هذه المؤسسات رغم ضعفها قد لعبت دوراً كبيراً في الجانب التعليمي إلا أنها كانت مراقبة سياسياً¹⁸.

إن بروز هذه المدارس من قبل جزائريين نتيجة تأثرهم بتجارب المدارس القرآنية في المشرق العربي وكذا تونس سواء الذين درسوا هناك أو الذين قرأوا عنها في الصحف¹⁹ ، وخوفاً من المدارس الفرنسية العي عملت على تنصير أبنائهم.

2.2- نماذج عن هذه المدارس:

تعدّ المدارس القرآنية التي تأسست في تبسة سنة 1913م أول مدرسة عصرية حرة ، ويعدّ السيد "عباس بن حمّانة" هو صاحب المشروع ، وأخذت اسمها من اسم الجمعية

17- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 231.

18- المرجع نفسه ، ص 239.

19- رابح تركي ، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص 168.

التابعة لها "الصدقية"، اعتمدت في تعليمها على برنامج يهتم بالتربية الإسلامية وبالقرآن وبالتاريخ الإسلامي وكذا الرياضيات والرياضة البدنية واللغة الفرنسية إلا أن الإدارة الفرنسية أغلقتها بعد شهور من فتحها²⁰.

كما ظهرت عدة محاولات لفتح مدارس أخرى في مدينة الجزائر منها مدرسة الفلاح من تأسس الشيخ "مصطفى حافظ" الذي كان متأثراً بما رآه في مصر، وبعدها تظهر مدرسة السلام سنة 1930م بالعاصمة للنين والبنات المتخصصة في التعليم العربي الإسلامي والمبادئ الدينية، إلى جانب الشبيبة الإسلامية التي ظهرت على يد جمعية تحمل اسم جمعية الشبيبة الإسلامية²¹.

تعدّ جمعية العلماء من بين التجارب الرائدة في مجال تأسيس المدارس الحرة سواء من حيث عدد المدارس التي أسستها أو التنظيم والتسيير الدقيق الذي كانت تخضع له، ولهذا فقد ساهمت بفاعلية في بعث نهضة تعليمية حقيقية في الجزائر، ومع نهاية سنة 1936 تمكنت الجمعية من تأسيس 136 مدرسة حرة²².

بفضل تلك المدارس نشأ جيل جزائري ذو ثقافة وطنية وفكر عربي حيث تكفلت الجمعية بأبناء الجزائريين الذين حرموا من المدارس الفرنسية وحتى المتمدرسين في المدارس الفرنسية من الجزائريين والتي حرصت جمعية المسلمين على إعطائهم حصص تعليمية في غير أوقاتهم الدراسية²³. والهدف من ذلك تلقينهم مبادئ القرآن والكتابة باللغة العربية ومبادئ الدين وتاريخ الجزائر والعالم العربي والإسلامي حتى يرتبط هؤلاء التلاميذ بوطنهم الأم الجزائر، وبالتالي كانت الجمعية تعطي تعليمًا مضادًا للتعليم الفرنسي بالجزائر.

20- فاتح اقيس، الشيخ العربي التبسي الرئيس الثالثة لجمعية العلماء المسلمين، ط1، دار الألفية للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2011، ص ص 98-99.

21- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر...، ج3، المرجع السابق، ص ص 247-248.

22- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1926، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 252.

23- راجع تركي، المرجع السابق، ص 210.

سعت الجمعية إلى فتح مدارس حرة عبر كامل أرجاء الجزائر وذلك عن طريق تكوين جمعيات إصلاحية محلية من أشخاص آمنوا بمبادئ الجمعية ، أما دورها فيشمل اختيار المعلمين والإشراف عليهم واختيار البرامج التعليمية وتأمين الكتب والمراقبة الدورية²⁴.

بلغ عدد مدارس الجمعية سنة 1935م أكثر من 70 مدرسة ، وقدر عدد تلاميذها في نفس السنة إلى 30 ألف تلميذ بين ذكر وأنثى²⁵ ، نذكر من هذه المدارس مدرسة دار الحديث بتلمسان ، ومدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، مدرسة الشبيبة الإسلامية بمدينة الجزائر ، ومدرسة تهذيب البنين بتسبة ، كما هدفت هذه المدارس إلى تربية النفوس وتغذية العقول بالعلم²⁶.

3.2- المناهج التعليمية:

اهتم رجال الإصلاح بالشأن التربوي حيث خصصوا له خمس تقارير له من مجموع تسعة تقارير ، حيث كان موقفهم في بداية الأمر متجها إلى جعل الإقليم وسيلة لا غاية ، وهذا ما جاء على لسان الشيخ الإبراهيمي حيث قال: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في التعليم ، وإنما تربيته على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل»²⁷.

لقد تناول مؤتمر الجمعية المنعقد عام 1935 مجموعة من التقارير نذكر منها²⁸:

- ربط التربية بالتعليم لتكاملها.
- تقسيم التعليم إلى نظري وفني يدوي ورياضي.
- رفض حشو المعلومات والتحفيظ الممل.

24- المرجع نفسه ، ص 212.

25- رابح دوي ، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الرد عليها (1830- 1962) ، دراسة نظرية تحليلية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا ، جامعة الجزائر 2 ، 2011 ، ص 190.

26- محمد الحسين الفضلاء ، المسيرة الرائدة للتعليم الحر بالجزائر ، ج3 ، ط1 ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1999 ، ص ص 18-20.

27- عبد القادر قويع ، الحركة اصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي (1920-1954) ، دار طليطلة ، الجزائر ، 2015م ، ص ص 215-217.

28- عبد القادر قويع ، المرجع نفسه ، ص 217.

- جزارة الكتاب المدرسي والطرق البيداغوجية.

- مجانية التعليم.

عملت جمعية العلماء على توحيد مناهجها الدراسية في جميع مدارسها الحرة حتى يتلقى الناشئة التعليم في مختلف البلاد على سياق واحد ، الهدف الأساسي منه تكوين جيل منسجم في تفكيره وعقائده وتكوينه العلمي والقومي²⁹.

كان التعليم والتربية في الجزائر قبل تأسيس جمعية العلماء تعليمًا مشوشًا لم يكن على مستوى من التنظيم والتنسيق والتوحيد ، فالجمعية هي التي نجحت في تجديد أساليب التعليم العتيق وعملت على التربية الدينية والقومية فكان لها الأثر الفعال في النهضة الحديثة في سائر نواحي الجزائر وهي التي قربت مناهج التعليم من بعضها ووحدت كتاب المعلوم والتلميذ³⁰.

نشرت جريدة البصائر العديد من الأخبار في هذا الجانب نذكر منها: قرار المجلس الإداري لجمعية العلماء في شأن التعليم ، ومن أهم ما قرره تنجيز البرنامج الموحد ، وتنجيز اللائحة الداخلية التي تحدد الحقوق والواجبات ، والعلاقات بين المعلمين أنفسهم وبينهم وبين الجمعيات المحلية ، وترتيب درجات المعلمين حسب الكفاءات والأقدمية³¹.

عمدت جمعية العلماء إلى تكوين لجنة خاصة اسمها لجنة التعليم العليا تتولى كل ما يتعلق بالتعليم من برامج ولوائح ومراقبة وتفتيش ، ومن أعمالها أيضا وضع المعلمين في المدارس بحيث تطلب منهم أن يوافقوها بتقرير عن حالة المدرسة خلال السنة الدراسية ويشمل هذا التقرير المسائل الخاصة بالناحية التعليمية من نقاط القوة والضعف في المدرسة وكذا تطبيق لوائح القانون الداخلي والتعليمات الصادرة عن المكتب الدائم للجمعية³².

29- أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 384.

30- محمد الغسيري ، التفتيش وأثره في سير التعليم بالمدارس ، البصائر ، ع 93 ، ص 2 ، الاثنين 9 محرم 1369هـ / 31 أكتوبر 1949م ، ص 23.

31- إلى المشايخ المعلمين ، البصائر ، ع 51 ، الاثنين 24 ذي القعدة 1367هـ / 27 سبتمبر 1948م ، ص 52.

32- محمد البشير الإبراهيمي ، قرار من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين ، البصائر ، ع 57 ، ص 2 ، الاثنين 10 محرم 1368هـ / 21 نوفمبر 1948 ، ص 91.

جاء في العدد ثمانية وستون من جريدة البصائر أنّ جمعية العلماء هي المخول الأساسي في تنظيم وتوجيه المدارس الحرة حيث يقضي بتوليها وإشرافها على جميع الشؤون الفنية والتعليم والإدارة والتفتيش، بينما تقوم الجمعيات المحلية بجمع المال الضروري لسير التعليم وبناء المدرسة وتأثيرها³³.

إن التعليم العربي بالجزائر كان يشمل عنصرين أساسيين هما: المعلمين، ورجال الجمعيات المحلية، أما المعلمون فقد استطاعت الجمعية بواسطة لجنة التعليم العليا أن ترتبهم في درجات حسب مؤهلاتهم، وتضع لائحة داخلية للمدارس قانونا عاما يحتوي جميع مسائل التعليم والإدارة والتفتيش، أما بالنسبة للجمعيات المحلية فقد وجدت الجمعية صعوبات في تنظيمها والإشراف عليها³⁴.

4.2- دروس الوعظ والإرشاد:

للمسجد أهمية بالغة لما يقدمه للمجتمع الجزائري والإسلامي من تربية وتعليم، فهو أداة تخلص المجتمع من الجهل وتنتشر فيه الأفكار الإصلاحية، فقد أوضح الشيخ عبد الحميد بن باديس في أحد مقالاته المنشورة في جريدة الشهاب أهمية المساجد ودورها في العمل الإصلاحي حيث قال: «إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي تتناب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة، وبصيرة بالدين فتكن هي في نفوسها ولا تهمل - وقد عرفت العلم وذائقت حلاوته- تعليم أبناءها وهكذا ينشر العلم في الأمة ويكثر طلابه من أبناءها...»³⁵.

لقد وظفت جمعية العلماء المساجد في توجيه الشعب الجزائري ومخاطبة الناس الذين يؤمنون ببيوت الله للصلاة عن طريق الدروس العامة وخطب الجمعة، التي كانت تتناول قضايا الناس وتعالج مشاكلهم، كما كان العلماء يلقون دروساً في التفسير وشرح الحديث وتصحيح المفاهيم، وبيان مكائد الاستعمار الفرنسي، وقد قال الشيخ البشير الإبراهيمي في هذا الصدد: «أما في المسجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتفكير هي طريقة

33- إسماعيل العربي، إلى الجمعيات القائمة بشؤون المدرسة، البصائر، ع 68، س 2، الاثنين 23 ربيع الثاني 1368هـ/21 فيفري 1949م، ص 182.

34- إسماعيل العربي، بيان إلى الجمعيات القائمة بشؤون المدارس، البصائر، ع 70، س 2، 8 جمادى الأولى 1368هـ/07 مارس 1949م، ص 198.

35- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، الطبعة الأولى، دار البعث، الجزائر، 1981م، ص ص 145-146.

السلف ، تذكر بكتاب الله ، تشرحه وتستجلي عبره ، وبالصريح حمن سنة رسول الله (ص) تبينها وتنشرها ، وبسيرته العلمية ، تجلوها وتدل الناس على مواضع التأسي منها ، ثم سير الصحابة وهديبهم ، ثم سير حملة السنة النبوية وحملة الهدى المحمدي في أفوالهم وأعمالهم كذلك»³⁶.

تكمن الأهمية الكبرى للمساجد في الإرشاد والوعظ وقد اعتمد العلماء فيها على إتباع طريقة في التعليم وهي في تقديم نصائح وتوجيهات ويذكرون بكتاب الله ويفسرونه ويستخرجون منه الحكم والأحكام ، ويوضحون ما جاء في السنة النبوية³⁷.

4- موقف سلطات الاحتلال من المدارس الحرة.

لقد أقلق النشاط المتزايد للمدارس الحرة الإدارة الفرنسية ، خاصة وأنّ التوجه الوطني لبرامجها ومختلف أنشطتها التربوية والأدبية أصبحت واضحة ، حيث رأت سلطات الاحتلال أن المدارس الحرة خطر على سياستها وفشل في مسعاها لمحو الشخصية الوطنية وأن نشاط هذه المدارس هو بداية نهاية سياستها التعليمية والثقافية في الجزائر³⁸ ، ومن أجل إفشال هذه المدارس وظفت الإدارة القانون بإصدار المراسيم والقرارات ذات الصلة بغلق المدارس واضطهاد المعلمين المخالفين للقانون.

1.4- القرارات الصادرة ضد المدارس الحرة:

صدرت منذ سنة 1933م عدة قرارات ومراسيم ضد المدارس الحرة منها منشور "ميشال" (Michel) الذي فرض رقابة شديدة على التعليم في المدارس الحرة ، وكذا مرسوم "رينيه" (Reni) الصادر عام 1935م الذي جاء مكملًا لقانون 1904م الذي ينص على منع أيّ معلم عربي يزاوّل مهنة التدريس إلا بخرصة تحدد نشاطه وفق شروط منها تعليم القرآن

36- كمال لدرع ، منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ممارسة النصيحة وأثرها في إصلاح الواقع الاجتماعي الجزائري ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، ص ص 264-265.

37- عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع نفسه ، ص ص 146-147.

38- عبد الحميد عومري ، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880-1914) ، اطروحة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، تخصص تاريخ ، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، الجزائر ، 2017 ، ص 183.

دون تفسير واستبعاد تدريس كل ما هو مرتبط بالعالم العربي الإسلامي والأدب بجميع فنونه³⁹.

كما صدر قرار "شوطان" (Choutan) سنة 1938م والذي اعتبر أشد القرارات القامعة لنشاط المدارس الحرة، منها أمر بإغلاق المدارس التي لا تتمتع بالرخصة ومنع المعلمين من ممارسة نشاطهم التعليمي إلا بعد الحصول عليها، كما اشترطت على المعلمين تعلم اللغة الفرنسية وكذا شروط أخرى منها كفاءة المعلم ولياقته البدنية وتوفير الشروط الصحية⁴⁰.

لقد حاولت الإدارة الاستعمارية عرقلة نشر التعليم العربي الحر لأنه ببساطة أصبح ينافس المدارس الفرنسية ويهدد السياسة التعليمية الفرنسية، ويؤكد لنا هذا تلك النية السيئة لإدارة الاحتلال من وراء هذه الشروط والإجراءات المجحفة هو جعل الرخصة وسيلة ضغط وإذلال في حق طالبيها، وأخطر ما ورد في قرار "شوطان" هو اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر وذلك لخنقها وتهميشها⁴¹.

2.4- غلق المدارس الحرة:

كما أشرنا سابقاً أن موقف الاحتلال الفرنسية تجاه المدارس الحرة كان قاسياً، إذ لم تتوقف عن إصدار المراسيم ضد التعليم ومتابعة المعلمين والمسيرين، بل تعدى ذلك إلى غلق كل مدرسة لا ترضى عنها، فبمجرد أن تباشر تلك المدرسة مهمة التعليم وتحقق نجاحاً ويرتفع عدد تلامذتها يجعل إدارة الاحتلال تزداد غيظاً وتمارس ضدها كل أنواع المضايقات حتى تجد مبرراً لسحب الرخصة منها وتصدر أمراً بإغلاقها⁴².

لقد ظهرت نية الاحتلال الفرنسي في غلق المدارس الحرة واضطهاد معلميها ومسؤوليها، ليس من أجل تلك الشروط القاسية وإنما لمنع تعليم أبناء الجزائر لغتهم

39- بوعزة بوضرساية، سياسة فرنسا البربرية في الجزائر (1830-1930) وانعكاساتها على المغرب العربي، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2012، ص 132.

40- جمال مخلوفي، التعليم العربي الحر في حوض الشلف خلال فترة (1930-1956)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2009، ص 116.

41- رابح تركي، المرجع السابق، ص 172.

42- نداء البشير الإبراهيمي إلى معلمي المدارس الحرة، جريدة البصائر، عدد 94، نوفمبر 1949، ص 115.

ودينهم وتاريخهم ، وقد اعترف الكتاب الفرنسيون بما قامت به الإدارة من تعسف في حق هذه المدارس بإغلاقها دون سبب ومراقبة معلميها واعتقالهم ، إذ جاء على لسان أحد المسؤولين الفرنسيين عندما زار الجزائر سنة 1954م حيث قال: «لقد خرجنا بحقيقة لا غبار عليها ، وهي أنّ الدولة الفرنسية تعمل على قتل اللغة العربية وتحطيم الدين الإسلامي وتجهيل الأمة»⁴³.

3.4- اضطهاد معلمي التعليم:

اعتبر المعلمون أنفسهم مجندين في معركة قومية من أجل المحافظة على اللغة العربية والثقافة الإسلامية والدين والتاريخ ، وصار هؤلاء المعلمون يؤدون مهمتهم سواء حصلوا على الرخصة أو لم يحصلوا عليها⁴⁴.

وقد قابلت سلطات الاحتلال ذلك العصيان بحملة واسعة ضد المعلمين الأحرار ، وقد كتب أحد معلمي التعليم العربي الحر مقالا في جريدة البصائر يشكو الظلم والاضطهاد حيث يقول: «في هذا الوقت وقت التقدم والنهوض ، وفي هذا العصر عصر النور والمدنية والحضارة... يساق المعلم الحر ويحكم مع أصحاب الإجرام»⁴⁵.

وقد قابل المعلمون تلك الضغوط بروح من التحدي والصمود ويظهر ذلك من خلال ما جاء على لسان الشيخ البشير الإبراهيمي⁴⁶ في هذا السياق إذ يقول: «بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكمة ونحن نقدر أنها ستعمم... وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن ، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة... وستلقى الأحكام بنفوس مطمئنة... وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا وحسبنا فخراً أن تكون التهمة فتح مدرسة بدون رخصة»⁴⁷.

43- راجع تركي ، المرجع السابق ، ص 176.

44- راجع تركي ، المرجع نفسه ، ص 176.

45- جمال مخلوفي ، المرجع السابق ، ص 119.

46- البشير الإبراهيمي (1889-1965) من أعلام الفكر والأدب في العالة العربي ، ومن العلماء العاملين في الجزائر ، هو رفيق النضال للشيخ عبد الحميد بن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية ونائبه ، ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء ، تبنى أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار وتحرير العقول من الجهل والخرافات ، أنظر: مجموعة أساتذة من جامعة منتوري ، موسوعة الشعر الجزائري ، ج1 ، دار الهدى ، الجزائر ، 2002 ، ص6.

47- راجع تركي ، المرجع نفسه ، ص 177.

لقد أدانت إدارة الاحتلال العشرات من المعلمين ومدراء المدارس ، وفي هذا الإطار تمت محاكمة الشيخ 'أحمد عقون' إمام بمسجد الأصنام بالبويرة بغرامة قدرها 10 آلاف فرنك بدعوى ممارسة نشاط التعليم دون رخصة ، ومحاكمة الشيخ "عمور بوعناني" ومدير مدرسة الإصلاح وحبسهما 10 أيام مع إغلاق المدرسة.

حتى الشيخ الإبراهيمي لم يسلم من تلك الإدانات حيث حكم عليه بدفع غرامة قدرها 4 فرنكات مع رئيس جمعية التربية والتعليم بتلمسان في جوان 1938م ، في حين تمت تبرئة رئيس الجمعية وهذا بتهمة تنظيم مسيرة عند تدشين دار الحديث دون رخصة.

وقفت إدارة الاحتلال أمام شيوخ جمعية العلماء وأغلقت في وجوههم أبواب المساجد والمدارس في تقديم الدروس العلمية والدينية في المساجد الواقعة تحت مراقبة الاحتلال ، وهذا بعد انزعاجها من خطب الوعظ والإرشاد التي يلقيها الشيخان عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي ، ودعوتهما لإصلاح المجتمع الجزائري⁴⁸.

إن ظهور المدارس الحرة والمؤسسات الدينية جاءت انعكاساً ورداً على السياسة التعليمية الفرنسية تجاه المؤسسات العلمية والدينية في الجزائر في القرن 19م ، وقد استطاعت النخبة تأسيس مدارس وجمعيات ونوادي أسهمت في الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي والهوية الوطنية رغم ما سلط عليها من إدارة الاحتلال من قمع واضطهاد وتشريد وإصدار للمراسيم وإغلاق المدارس وملاحقة كل من يخالف ذلك.

الخاتمة:

من صفحات المقال استنتج جلة من المحطات وجب علي الوقوف عندها وتتمثل في:

- اتخاذ إدارة الاحتلال موقف سلبي اتجاه المؤسسات العلمية والدينية في الجزائر التي أصبحت حجر عثرة أمام السياسة التعليمية الفرنسية.
- قيام الاحتلال بمصادرة الأوقاف والاستيلاء عليها لتصبح تابعة لممتلكات الدولة الفرنسية من خلال ترسانة قانونية.

48- ليندة رحمانية ، الشيخ الطيب العقبي ودوره الإصلاحي (1890- 1962) ، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ العام ، قسم التاريخ ، جامعة 8 ماي 1945- قالمة ، 2017 ، ص 49.

- هدم العديد من المساجد في المناطق التي تم احتلالها وتحويل بعضها إلى كنائس أو مؤسسات عسكرية أو مستشفيات ، مما تناقص عددهم وأصبحوا يعدون على الأصابع بعدما كانوا منتشرين في أغلب الأحياء.
- تعرض الزوايا للقمع والتنكيل والاستيلاء على أملاكها واغتصاب أوقافها شريان وجودها ، إلى جانب محو الدور الاجتماعي والثقافي والديني التي كانت تقوم به ، كما أصبحت تحت المراقبة ، وزد على ذلك محاولة بث الخلاف والفرقة بين الطرق الصوفية ومريديها.
- سعت فرنسا إلى اضطهاد المعلمين والمدرسين ومنع فتح المدارس ، كما تعرضت الكتب العربية إلى الإتلاف والحرق ، وفي المقابل شجعت وأعطت الأولوية للتعليم الفرنسي ودعمه بكل الوسائل على حساب التعليم العربي.
- تراجع دور الكتاتيب التي كانت تنشر التعليم الابتدائي والقرآني وهذا بفعل الإجراءات والقوانين المضادة لها ، والتي استخدمتها السلطات الفرنسية للحد من فتح تلك المؤسسات ومراقبة أسلوب تعليمها.
- ظهور نخبة مثقفة من الجزائريين مع مطلع القرن العشرين ، حيث تم إنشاء مدارس وجمعيات ونوادي عملت على التصدي في وجه المخططات التعليمية الفرنسية ، فأنشئت مدارس التعليم العربي الحر ، لمواجهة سياسة التجهيل والقمع الفكري ومحاربة الأمية والقضاء على البدع والخرافات التي حاولت فرنسا نشرها بين الجزائريين.
- بروز جمعية العلماء المسلمين التي تميز نشاطها الثقافي والديني في استعمال المساجد والنوادي لتبليغ دعوتها ، إلى جانب تأسيس مدارس حرة وقفت في وجه السياسة التجهيلية على الجزائريين ، وكان من نتائجها وضع جملة من القوانين والقرارات القمعية قد أعضاء الجمعية ومدرسيها ووصل الحال إلى منع تدريس اللغة العربية في المدارس الحرة.
- إنَّ القوانين التي أصدرتها فرنسا في حق المؤسسات التعليمية والدينية لدليل على بروز الوجه الحقيقي للاحتلال الفرنسي الذي جاء إلى الجزائر لمحاربة هوية الجزائريين ، محاولة طمس الشخصية الجزائرية والقضاء على الدين الإسلامي ، وكذا محاولة سلخ المجتمع عن جذوره العربية والإسلامية.

قائمة المراجع:

- أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ج 2 ، ط4 منقحة ، 1992.

- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ج 3 ، ط 1 ، 1998.
- أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 384.
- أحمد عمرأوي ، سليم وآخرون ، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916) ، الجزائر: دار الهدى ، 2009.
- إسماعيل العربي ، "إلى الجمعيات القائمة بشؤون المدرسة" ، البصائر ، ع 68 ، س 2 ، الاثنين 23 ربيع الثاني 1368هـ/21 فيفري 1949م.
- إسماعيل العربي ، "بيان إلى الجمعيات القائمة بشؤون المدارس" ، البصائر ، ع 70 ، س 2 ، 8 جمادى الأولى 1368هـ/07 مارس 1949م.
- بوعدة بوضرساية ، سياسة فرنسا البربرية في الجزائر (1830-1930) وانعكاساتها على المغرب العربي ، الجزائر: دار الحكمة للنشر ، 2012.
- حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، تحقيق وتعريب: محمد العربي الزبيري ، الجزائر: دار الحكمة ، ط 2 ، 2014 .
- جمال مخلوفي ، التعليم العربي الحر في حوض الشلف خلال فترة (1930-1956) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية العلوم الإنسانية ، قسم التاريخ وعلم الآثار ، جامعة وهران ، 2009.
- رايح تركي ، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1981.
- عبد الحميد زوزو ، تاريخ الاستعمار والتحرر في إفريقيا وآسيا ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 2009.
- عبد الحميد عومري ، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880-1914) ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، تخصص تاريخ ، الجزائر: جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، 2017.
- عبد القادر بوحسون ، "سياسة التعليم الفرنسية بالجزائر ، وموقف الجزائريين منها إبان الثورة التحريرية (1954-1962)" ، مجلة متون للعلوم الاجتماعية ، م 8 ، ع 3 ، سبتمبر 2016.
- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ، الجزائر: دار الأمة ، 2010.
- عبد القادر فضيل ، "محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال" ، مجلة اللغة العربية ، ع الممتاز.
- عبد القادر قويع ، الحركة اصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي (1920-1954) ، الجزائر: دار طليطلة ، 2015م.
- عبد الكريم بوصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945) ، الجزائر: دار البعث ، الطبعة الأولى ، 1981م.

- عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1926 ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1997.
- رابح دبي ، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الرد عليها (1830-1962) ، دراسة نظرية تحليلية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا ، جامعة الجزائر 2 ، 2011.
- فاتح اقيس ، الشيخ العربي التبسي الرئيس الثالثة لجمعية العلماء المسلمين ، قسنطينة: دار الألمعية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011.
- كمال لدرع ، منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ممارسة النصيحة وأثرها في إصلاح الواقع الاجتماعي الجزائري ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- ليندة رحمانية ، الشيخ الطيب العقبي ودوره الإصلاحي (1890-1962) ، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ العام ، قسم التاريخ ، جامعة 8 ماي 1945-قلمة ، 2017.
- مجموعة أساتذة من جامعة منتوري ، موسوعة الشعر الجزائري ، الجزائر: دار الهدى ، ج1 ، 2002.
- محمد البشير الإبراهيمي ، "قرار من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين" ، البصائر ، ع 57 ، س 2 ، الاثنين 10 محرم 1368هـ / 21 نوفمبر 1948.
- محمد الحسين الفضلاء ، المسيرة الرائدة للتعليم الحر بالجزائر ، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ج3 ، ط1 ، 1999.
- محمد الغسيري ، "التفتيش وأثره في سير التعليم بالمدارس" ، البصائر ، ع 93 ، س 2 ، الاثنين 9 محرم 1369هـ / 31 أكتوبر 1949م.
- محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر من (1930-1904) - دراسة تحليلية ، الجزائر: دار حلب.
- مزيان سعدي ، النشاط التنصيري للكاردينال لافيغري في الجزائر (1867-1892) ، الجزائر: دار الشروق ، 2009.
- إلى المشايخ المعلمين ، البصائر ، ع 51 ، الاثنين 24 ذي القعدة 1367هـ / 27 سبتمبر 1948م.
- نداء البشير الإبراهيمي إلى معلمي المدارس الحرة ، جريدة البصائر ، عدد 94 ، نوفمبر 1949.
- George Lucas, Petit LAROUSSE, Paris : Librairie LAROUSSE, 1986.